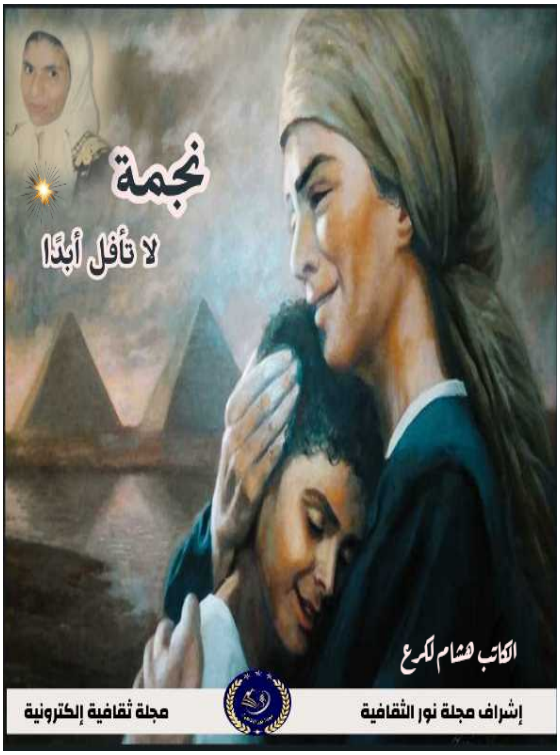

اسم الكتاب: نجمة لا تأفل أبدًا
اسم الكاتب: هشام لكرع
إشراف مجلة مجلة نور الثقافية

نجمةٌ لا تأفلُ أبدًا

بقلم: هشام الكرع – أستاذ الفلسفة، وناقد الأدب، وابنٌ مكسور الجناح

في كلّ فصلٍ من فصول الحياة، نقرأ ونكتب ونتأمل، لكنّني اليوم لا أكتب مقالًا فلسفيًا، ولا نقدًا أدبيًا، بل أكتب قلبي.

أضعه هنا، بين دفّتي هذا الكتاب، كما هو: مبلّلًا بالدمع، متشظّيًا بالشوق، مرتجفًا كلّما مرّ اسمها أمامي:
أمّي... نجمةٌ قلبي التي انطفأت، ونجمةٌ السماء التي لا تنطفئ.

أمّي لم تكن فقط امرأة أنجبتني، بل كانت الدفء حين بردت الدنيا، والنبض حين سكنت الحياة، والصوت حين صمت الجميع.
هي التي لم تدرّسني الفلسفة، لكنها كانت أعظم فلسفاتي.
علّمتني أن الحياة ليست في العيش، بل في العطاء،
وأن الكرامة ليست كلماتٍ تردّدها، بل أفعال نمارسها،
وأن الحبّ ليس كلامًا يُلقى، بل تضحيةٌ صامتة تُقدّم.

لقد رحلت أمّي...
رحلت، وكأنّ الكون توقّف.
توقّفت الساعة، خرس الكلام، وصار كلّ شيء بعدها ناقصًا، حتّى أنا.
لم أعد كما كنت، بل أصبحت نصف حيّ، ونصف ميت.
أتنفّس، نعم، لكنّ أنفاسي باردة... بلا حضنها.

لي إخوةٌ خمسة، وكلّنا حملنا من أمّنا قسطًا من الحنان،
لكنّي أنا، كنتُ الأقرب لظلّها، والأكثر تماهيًا بصوتها، والأشدّ افتتانًا بعينيها...
هي لم تكن فقط أمًّا... كانت الحياة نفسها.
وحين ماتت، ماتت الحياة.
ومنذ ذلك اليوم، أنا أعيش، لكن حيٌّ ميت.
أراني بين الناس، لكني في داخلي مع أمّي.
أكلّمها في صلاتي، وأراها في أحلامي، وأشمّ عطرها في الذاكرة.
أمّي التي رحلت ولم ترحل...
أمّي التي سكنت التراب، لكنها لم تبرح القلب.

أكتب هذا الكتاب لأعيد نجمةً إلى السماء، نجمةً اسمها: أمّي.
أكتب عنها، لا لأرثيها، بل لأحييها.
لأقول للعالم إنّ امرأةً بسيطةً اسمها نجمة، ربّت ستّة أبناء، ووضعت في كلّ واحدٍ منّا قطعة من نورها.
وهذه الصفحات ليست مدحًا لها، بل وفاءً واجبًا، وثدبةً على الجبين، وصرخةً في وجه الفقد.

ولكلّ من قرأ هذه الكلمات:
اقرأها بقلبك، لا بعينيك.
لأنّ الذي يُكتب عن الأمّ لا يُقرأ بعقلك، بل يُقرأ بدموعك،
يُقرأ بحنينك،
يُقرأ بذاك العناق الذي لم يكتمل،
وبتلك الجملة التي قلتَ فيها يومًا:
"إن شاء الله نجي عندك غدا، ماما"...
فلم يعد هناك غد.

هذا الكتاب ليس أدبًا فقط...
هو صلاة،

هو نحيب مكتوم،
هو فنجان شاي على الطاولة ما زال ينتظرها،
هو أنا...
أنا الذي أكتب، لأنني لم أعد أقوى على الصمت.

إليكِ يا أمي، يا نجمة عمري، هذا الكتاب:
لتقرئيه من عليائك،
وتبتسمي.

رسالة إلى الله

يّا رب،
أنتَ من أخذها، وأنتَ من وهبتها، فامنحها الآن دفءَ الجنة كما منحتني دفءَ حنانها.
اغمر قبرها بنور وجهك، وارزقها مقامًا عند نبيّك الكريم،
لأنها كانت نبيّة قلبي، وكانت رسولة رحمتك إلي.

لا أطلب معجزة، ولا رجوعًا للماضي...
فقط، اجعلني بارًا بها بعد الموت، كما كنتُ مقصّرًا في حياتها.

حين تصبح الذاكرة بيتًا للأم

الذاكرة يا أصدقائي، ليست مجرد استرجاع...
إنها غرفة مغلقة، كل ركن فيها فيه رائحة الأم.
ذاك الرف الذي كانت تضع فيه أدوية القلب،
تلك النظّارة المكسورة التي لم تُصلحها يومًا لأنها كانت تقول: "باقي خدامة".
وذاك الصندوق في أعلى الخزانة... فيه أوراق قديمة، وشهادة ميلادي، ورسائل كتبتها لي ولم ترسلها أبدًا.

الأمّ لا تموت، بل تتحوّل إلى ذاكرةٍ تنام تحت الوسادة،
تتسرّب في رائحة الثياب، وتداعب القلب حين نظنّ أننا أقوياء.

إلى كلّ من ما زالت أمّه على قيد الحياة:
لا ترفع صوتك، لا تؤجّل زيارتها، لا تنشغل عنها كثيرًا.
اجلس معها، قبّل يديها، واسألها: "واش محتاجة شي حاجة؟"
لأنّك يومًا ما، ستبحث عن يدٍ تُمسكك حين تسقط... ولن تجد.

إلى كلّ قلبٍ مثقوبٍ بفقد أمّه:
أعلم أنك تحاول أن تبتسم، لكنّ في قلبك صقيعًا لا يذوب.
اعلم أنك لست وحدك.
أنا معك، وهذا الكتاب معك،
وأمّك، حيثُ هي الآن، تدعو لك وتبتسم.

نجمة لا تأفل أبدًا

لن تنطفئي، يا أمّي،
لأنّ كلّ حرفٍ كتبته عنكِ... هو شمعةٌ في ليل فقدك.
كلّ قارئٍ لهذا الكتاب... سيعرفك، وسيحبّك، وسيترحّم عليك.
وهكذا تعودين، كلّ مرة، نجمةً تُنير ليل الغياب.

ابنك الذي لن يكفّ عن البكاء داخله...
لكنّه، من أجلك، سيستمرّ في الكتابة.

الجزء الثاني: ظلال النجمة

الفصل الأول: حين يتحدث الغياب

يقال إنّ الغياب صمت، لكنّي تعلمت أنّه أكثر ضجيجًا من الحضور.
الذين غابوا لا يسكنون المقابر، بل يسكنون التفاصيل.
صوت المفتاح حين نفتح الباب، رائحة القهوة القديمة، أو ذاك الدعاء الذي ما زال عالقًا على وسادتك.

أمّي لم تمت في اليوم الذي دُفنت فيه، بل ماتت في كلّ لحظةٍ لم أجد فيها يدها حين أحتاجها.
رحيل الأم لا يُقاس بالأيام، بل بالنبضات التي تخوننا كلما تذكرناها.
كنت أظن أن القوة أن أتماسك، لكنني اكتشفت أن البكاء نوع آخر من الصبر،
وصلاة لا تحتاج إلى قبلة، لأن الله نفسه هو قبلة كلّ قلبٍ موجوع.

في كلّ مساء، أفتح نافذتي، وأتحدّث إليها.
أقول لها: "غريب هذا العالم بدونك يا أمي، حتى الضوء فقد معناه".
فأسمع في داخلي همسًا يشبه النسيم:
"أنا لم أرحل يا ولدي، فقط غيرت مكاني".

الفصل الثاني: فلسفة الأم في الوجود

كانت أمي أمّية لا تعرف القراءة، لكنها كانت تعرف كيف تقرأ وجهي.
كانت تفهم صمتي أكثر من كلامي، وتُدرك وجعي قبل أن أشتكي.
حين كنت أدرس الفلسفة وأغوص في كتب أفلاطون وسقراط،
كنت أعود إليها لأكتشف أنّها كانت الفيلسوفة الكبرى،
التي علّمتني الحكمة دون أن تنطق بكلمة "الحكمة".

هي من جعلتني أفهم أن الفلسفة ليست في الجدال،
بل في الحبّ، في الصبر، في التضحية دون ضجيج.
كانت تقول لي: "النية يا ولدي أهمّ من العمل".
وأنا الذي كنت أظنّ أنني أعلم، أدركت بعد رحيلها أنني كنت أتعلم منها بصمتها.

كل أمّ تحمل في داخلها مكتبة سماوية،
صفحاتها من حليب الطفولة،
وحروفها من دعاء،
وعناوينها من حبّ لا يُقاس.

الفصل الثالث: في الطريق إلى قبرها

الطريق إلى المقبرة لم يعد طريقًا للوداع...
بل صار طريقًا للقاء.
كلّ مرة أذهب إليها، أضع على قبرها وردةً واحدة،
لكنني أعود محمّلًا بمئات الرسائل منها.

لا أتكلم هناك كثيرًا، فقط أجلس وأصغي

الجزء الثاني: ظلال النجمة

الفصل الأول: حين يتحدث الغياب

يقال إنّ الغياب صمت، لكنّي تعلمت أنه أكثر ضجيجًا من الحضور.
الذين غابوا لا يسكنون المقابر، بل يسكنون التفاصيل.
صوت المفتاح حين نفتح الباب، رائحة القهوة القديمة، أو ذاك الدعاء الذي ما زال عالقًا على وسادتك.

أمّي لم تمت في اليوم الذي دُفنت فيه، بل ماتت في كلّ لحظةٍ لم أجد فيها يدها حين أحتاجها.
رحيل الأم لا يُقاس بالأيام، بل بالنبضات التي تخوننا كلما تذكرناها.
كنت أظن أن القوة أن أتماسك، لكنني اكتشفت أن البكاء نوع آخر من الصبر،
وصلاة لا تحتاج إلى قبلة، لأن الله نفسه هو قبلة كلّ قلبٍ موجوع.

في كلّ مساء، أفتح نافذتي، وأتحدّث إليها.
أقول لها: "غريب هذا العالم بدونك يا أمي، حتى الضوء فقد معناه".
فأسمع في داخلي همسًا يشبه النسيم:
"أنا لم أرحل يا ولدي، فقط غيرت مكاني."

الفصل الثاني: فلسفة الأم في الوجود

كانت أمي أمّية لا تعرف القراءة، لكنها كانت تعرف كيف تقرأ وجهي.
كانت تفهم صمتي أكثر من كلامي، وتُدرك وجعي قبل أن أشتكي.
حين كنت أدرس الفلسفة وأغوص في كتب أفلاطون وسقراط،
كنت أعود إليها لأكتشف أنها كانت الفيلسوفة الكبرى،
التي علمتني الحكمة دون أن تنطق بكلمة "الحكمة".

هي من جعلتني أفهم أن الفلسفة ليست في الجدال،

بل في الحبّ، في الصبر، في التضحية دون ضجيج.
كانت تقول لي: "النية يا ولدي أهمّ من العمل".
وأنا الذي كنت أظنّ أنني أعلم، أدركت بعد رحيلها أنني كنت أتعلم منها بصمتها.

كل أمّ تحمل في داخلها مكتبة سماوية،
صفحاتها من حليب الطفولة،
وحروفها من دعاء،
وعناوينها من حبّ لا يُقاس.

الفصل الثالث: في الطريق إلى قبرها

الطريق إلى المقبرة لم يعد طريقًا للوداع...
بل صار طريقًا للقاء.
كلّ مرة أذهب إليها، أضع على قبرها وردةً واحدة،
لكنني أعود محمّلًا بمئات الرسائل منها.

لا أتكلم هناك كثيرًا، فقط أجلس وأصغي.
الرياح تتحدث لغتها، والعصافير تزور المكان وكأنها تعرفها.
أشعر أنّ التراب حول قبرها ألين من سائر الأرض،
كأنّ الجنة اقتربت خطوة واحدة من هذا المكان.

في ذلك الركن الهادئ، أسمع في داخلي نداءً رقيقًا:
"ما زلتَ ابني، وما زلتُ أمّك...
فلا تحزن، لأن الدعاء يصل أسرع من الزيارة".

الفصل الرابع: دروس من السماء

كلما اشتدّ عليّ الحنين، أفتح دفاتر السماء.
أقرأ فيها أن الحزن ليس ضعفًا، بل علامة حبٍّ عظيم.
وأني حين أشتاق إليها، فإن الله نفسه يبتسم،
لأنّ الاشتياق للأمّ عبادة لا تُقال، بل تُحس.

أدركت أن الله حين خلق الأمهات،
لم يخلق بشرًا فقط، بل خلق نسخًا صغيرة من رحمته.
ولذلك، حين تفقد أمّك، لا تشعر أن الله غاب،
بل أنك عدت إلى امتحان الإيمان الحقيقي:
أن تحبّها وأنت لا تراها،
أن تبرّها وهي في السماء،
أن تعيش وكأنها ما زالت تسمعك في كلّ دعاء.

الفصل الخامس: رسائل لم تصل

أحيانًا أكتب لها رسائل طويلة، ثم أتركها بلا عنوان.
أضعها في درج مكتبي، وأعلم أنها ستقرأها بطريقة لا أفهمها.
كتبتُ لها مرة:

"أمّي، لقد نجحتُ في الجامعة،
لكن فرحتي ناقصة، لأنّ الكفّ التي كانت تُصفق لي لم تعد هنا."

وكتبت في أخرى:

"هل تعلمين يا أمي؟
صرتُ أستاذًا مثلك، لكن طريقتي في الشرح تشبه طريقتك في الحنان."

كل رسالة أكتبها ليست حبرًا على الورق،
بل صلاةٌ في شكل كلمات،
وعناقًا متأخرًا من ابنٍ ما زال ينتظر أن تربّت على كتفه من السماء.

الفصل السادس: إلى كلّ أمّ على قيد الحياة

احضني أبناءك أكثر، لا تظني أن العناق عادةٌ مكررة.
كلّ عناقٍ تؤجّلينه هو عُمرٌ يفوت.
لا تنتظري "المناسبات"، فالحبّ لا يحتاج مواعيد.
تحدثي إليهم، حتى لو لم يُجيبوا،
وادعي لهم، لأن دعاءك سلاحٌ يسبق القدر.

ولكلّ ابنٍ أو ابنةٍ يقرؤون هذه الكلمات:
اغتنموا الوجود قبل أن يصير ذكرى.
فالموت لا يسرق الأمّ فقط...
بل يسرق النسخة الأجمل منكم أنتم.

لأن النجمة لا تأفل أبدًا

يا أمّي،
كنتِ البداية، وستبقين النهاية.
كلّ ما بين الحرف والدمعة، بين الليل والدعاء، هو أنت.

حين يقول الناس إنّ الموت نهاية،
أقول لهم: لا، إنه فقط فصل جديد من الحنان الأبدي.

ستظلين، يا أمّي، نجمة لا تأفل أبدًا،
تسكنين بين الله وقلبي،
بين الدعاء والسماء،
بين الذاكرة والخلود.

✏ استاذ. اناس لكرع